المقدمة

الحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات، الحمد الله الذي يسر لي بعونه وتوفيقه إتمام هذا البحث، والصلاة والسلام على نبيه ورسوله محمد، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فقد رفع الله سبحانه وتعالى من شأن العلماء وأعلى قدرهم حيث قال سبحانه في محكم التنزيل: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[2]، كما نبّه رسوله ﷺ إلى أهمية العلماء وأعلى شأنهم عندما عدّهم ورثة الأنبياء، فالأنبياء لم يورثوا درهمًا ولا دينارًا وإنما ورثوا العلم. والعلماء هم أعلم الناس بالله تعالى وأكثرهم خشيةً له، وفي ذلك يقول جلاّ في علاه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[3]. ونظرًا للمكانة الدينية والاجتماعية لعلماء الإسلام عمومًا فقد حظي علماء الحجاز بالتقدير والاحترام من فئات المجتمع كافة وعلى مرّ العصور، ومن ذلك العصر المملوكي (٦٤٨هـ - ٩٢٣هـ/١٢٥٠م - ١٥١٧م) الذي امتدّ من منتصف القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي حتى الربع الأول من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، وقامت خلاله دولة كبيرة استمرت على ما يزيد عن قرنين ونصف قرن من الزمان حصنًا منيعًا للإسلام والمسلمين، واستطاعت بفضل من الله ثم بجهود رجالها المخلصين من القضاء على أكبر خطرين هدّدا البلاد الإسلامية وهما الخطر المغولي والخطر الصليبي، لاسيما بعد سقوط مدينة بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م وما ترتب على ذلك من شغور منصب الخلافة الذي كان ينظر إليه المسلمون في مشرق العالم الإسلامي ومغربه نظرة إجلال واحترام، وقد دفع هذا الوضع المأساوي بالمسلمين إلى تقدير المماليك والنظر إليهم بأنهم حملة لواء الجهاد في العالم الإسلامي ضد جميع المخاطر المحدقة بدولة الإسلام، لاسيما بعد أن تمكنوا من تحقيق التقدير عندما تمكنوا من الانتصار على المغول في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م ووقف المدّ المغولي والقضاء على الأسطورة التي كانت تقول بأن جيش المغول لا يقهر، ولو لم يُقدر للمماليك الانتصار في هذه المعركة لقضى المغول على أهم معقل للحضارة في بلاد الإسلام وهي

---

[1] سورة المجادلة: الآية ١١

[2] سورة الزمر: الآية ٩

[3] سورة فاطر: الآية ٢٨

مصر[٤]، ولتعرضت إلى ما تعرضت له بغداد عندما هاجمها هولاكو سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، فاحتفظت مصر بما لها من المدنية والحضارة وظلت القاهرة منارةً للعلم ومركزًا علميًا يقصده طلبة العلم من أنحاء العالم كافة[٥].

وبعد هذا الانتصار الكبير حرص سلاطين المماليك على بسط نفوذهم السياسي على الحجاز ليظهروا في صورة الخادم والمدافع عن بلاد الحرمين، ثم تمكنوا من التصدي للخطر البرتغالي الذي هدّد الأماكن المقدسة على الرغم مما كانت تعانيه تلك الدولة من الضعف الاقتصادي بسبب اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح[٦]، إلا أنها ظلت تؤدي هذا الدور في الدفاع عن الأراضي المقدسة حتى سلمت هذه المهمة إلى الدولة العثمانية[٧]. وقد شهدت بلاد الحجاز خلال العصر المملوكي تقدمًا علميًا وحضاريًا فكثُر توافد العلماء من مختلف الفئات من مجاورين ووافدين ورحالة، وكان تزايدهم نتيجة لكثرة الأربطة[٨] والمدارس في تلك الفترة، وكان الدافع والمحفز لهذه النهضة العلمية هو حبّ السلاطين والحكام للعلم وتقريبهم العلماء، ناهيك عن اهتمامهم بإنشاء المؤسسات التعليمية من كتاتيب ومدارس وغيرهما [٩]. وقد بلغ العلماء منزلة كبيرة في بلاد الحجاز في هذا العصر وأسهموا بشكل كبير وفعال في مجالات الحياة كافة: الدينية،

---

[٤] عبد الله الغامدي: جهاد المماليك ضد المغول والصليبين في بلاد الشام، ص٦٣، ١٠٦.

[٥] السيد العريني: المغول، ص٢٦٣.

[٦] رأس الرجاء الصالح: هو شبه جزيرة في جنوب إفريقيا يقع جنوبي كيب تاون وشمال غربي كيب أجولاس ، وهو آخر نقطة في طرف جنوب إفريقيا، وقد اشتهر هذا الرأس البحري بطرقه الجيدة وشواطئه الجميلة. اكتشفه القبطان الإيطالي "بارتلميو دياز" سنة ٩٠٣هـ/١٤٩٧م وسماه "رأس العواصف"، ولكن الملك البرتغالي "خوان الثاني" أطلق على الرأس الاسم الحالي على أمل أن يؤدي هذا الكشف إلى وجود طريق بحري إلى الهند . مجموعة مؤلفين: الموسوعة العربية العالمية، (١٥٩/١١).

[٧] أحمد عودات: تاريخ المغول والمماليك، ص١٢٧.

[٨] الأربطة واحدها رباط وتعني في اللغة: ملازمة ثغر العدو، وكان الرباط أول الأمر يقوم بمهمة الدفاع عن الأراضي الإسلامية، فكان يقام في المدن الحدودية المتاخمة للعدو، وهو عبارة عن بناء حصين يعسكر فيه المتطوعون من المجاهدين في سبيل الله، ولما اتسعت الدولة وزادت هيبتها وسيطرت على مناطق متعددة من الأقطار وما رافق ذلك من تطور في النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية، تغيرت وظيفة الرباط خاصة في المشرق الإسلامي حيث تحول إلى مسكن للفقراء والمساكين وغيرهم، وبعد أن كان في المناطق الحدودية لحماية الثغور صار يبنى في داخل المدن لغرض اجتماعي وهو الإيواء والسكن. ابن منظور: لسان العرب، (٢٠٣/٧)؛ حسين شافعي: الرباط في مكة المكرمة منذ البدايات وحتى نهاية العصر المملوكي ، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص ٥

[٩] علي السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص٢٣١؛ خالد الجابري: الحياة العلمية في الحجاز، ص١٤٢.

والعلمية، والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، وحصلوا على مكانة عالية في العالم الإسلامي، وهي مكانة استمدوها من مكانة الحجاز في نفوس المسلمين لضمّه الحرمين الشريفين، فكانت تصل إليهم الهبات والصدقات من الحكام والسلاطين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، إلا أن ذلك لم يثن العلماء عن العمل فكانوا يسعون إلى كسب قوتهم وأرزاقهم ولم يقتصر دخلهم على هذه الهبات وتلك الصدقات[١٠]، بل تعددت مصادر دخلهم في تلك الفترة وذلك من خلال توليهم العمل بالوظائف، إلى جانب ممارسة بعض الحرف والمهن، مع اهتمامهم بتلقي العلم وما كانوا عليه من تقوى وزهد .

ولأجل أهمية هذا الموضوع فقد توافرت عدة أسباب دعت لاختياره منها:

- جدة الموضوع؛ حيث أنه لم يُدرس في رسالة علمية (ماجستير أو دكتوراة) مفصلة حسب علم الباحثة.
- أهمية فئة العلماء الذين هم أساس المجتمع في كل زمان ومكان.
- تتبع الوظائف والمهن والحرف التي عمل بها العلماء في بلاد الحجاز والتي كانت مصدر دخلهم.
- التأكيد على أن دور العلماء لم يقتصر على الجانب الديني والعلمي، بل أسهموا في النواحي الاقتصادية والاجتماعية من خلال توليهم الوظائف وإشتغالهم ببعض الحرف والمهن.
- الخروج بتصوّر واضح عن الوظائف والمهن والحرف التي عمل بها العلماء وأثرها على نتاجهم العلمي.
- إثبات أن العمل في المِهن والحِرف مهما كان نوعها وحجمها لا يعيق العالم عن تحصيله العلمي وأداء دوره في مجتمعه.

وقد واجهت هذه الدراسة بعض الصعوبات أثناء إعدادها، ولعل من أهمها كثرة التراجم وتشابه الأسماء مما تتطلب الرجوع إلى كثير من كتب التراجم، هذا زيادة على أن الموضوع يتناول معظم مدن الحجاز ولم يقتصر على مدن معينة، وهو ما استدعى البحث في كثير من المصادر والمعاجم للوقوف على أسماء العلماء في هذه المدن وما قاموا به من وظائف ومِهن وحِرف، وكان مما زاد من صعوبة الأمر هو قلّة المعلومات وتفرّقها في تلك المصادر التاريخية، وهو ما استدعي جهدًا ومشقّة ووقتًا لجمع المادة العلمية وتنظيمها وترتيبها والتأليف بينها .

---

[١٠] العز بن فهد: بلوغ القِرى، (٥٣٢/١)، (٤٥٧/٢).

وأما من حيث الدراسات السابقة؛ فبالرغم من أن عددًا من الدراسات تناولت دور العلماء وإسهاماتهم في المجالات العلمية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها من مناشط الحياة في مجتمعاتهم، إلا أنني – وبعد الاطلاع الواسع حول الموضوع – لم أقف على دراسة أفردت الحديث عن الجانب المتعلق بعمل العلماء وكسبهم، بطريقة شاملة تتقصّى جميع جوانب الموضوع وتغطّي كامل تفاصيله، إلا بحثين اثنين تطرقا إلى الجانب الوظيفي والمهني والحِرفي، وكانا بشكل مختصر محدود اقتصر الأول على مكة المكرمة لشريفة المنديل: وهو بعنوان حِرف العلماء ومِهنهم في مكة المكرمة في العصر المملوكي، وهو بحث جاء في ثلاثين صفحة، نشر في مجلة العلوم العربية والإنسانية، جامعة القصيم، في العدد ١٤٣٧،٤هـ/٢٠١٥م، والآخر اقتصر على مدينة دمشق لفرج السبيعي: وهو بعنوان مِهن العلماء وحِرفهم في دمشق خلال العصر المملوكي، وهو بحث جاء في عشرين صفحة، نشر في مجلة جامعة أم القرى، في العدد ٦٤، محرم، ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٤م.

ولعلّ من أهمّ تلك الدراسات التي يمكن الإشارة إليها في هذا المقام:

- حورية السملي: الأُسر العلمية في المدينة المنورة وأثرها على الحياة العامة في العصر المملوكي، رسالة ماجستير منشورة، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.
- خالد الجابري: الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي، رسالة ماجستير منشورة، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
- خلود البدنة: الأُسر العلمية في مكة المكرمة وأثرها على الحياة العلمية والعملية خلال العصر المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
- عبد الحفيظ السالمي: الحياة الدينية في مكة المكرمة خلال العصر المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- فاطمة المباركي: الوظائف في الحرم المكي في العصر المملوكي، رسالة ماجستير منشورة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- فوزي ساعاتي: أسماء من تولى الوظائف الدينية والإدارية بالمسجد الحرام من خلال كتاب العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين لتقي الدين الفاسي، بحث مقدم إلى ندوة مكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

- متعب بن حسين القثامي: بحث (أضواء على الحِرف والصناعات في مكة المكرمة من خلال كتاب العقد الثمين للفاسي) . بحث منشور في كلية الآداب، جامعة الاسكندرية.
- محمد بهجت مختار: الصلات السياسية والحضارية بين مصر والحجاز منذ بداية العصر الإسلامي حتى نهاية عصر المماليك. رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة عين شمس.
- محمد الطاسان: الوظائف الدينية والإدارية بالمسجد الحرام في عهد دولة المماليك، مجلة العصور، المجلد الخامس، الجزء الثاني، ذو الحجة ، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.
- محمد آل عمرو: التعليم في الحجاز في العصر المملوكي، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- نوال طلال الشريف: الحياة العلمية في بلاد الحجاز وعلاقتها بمصر في القرنين السادس والسابع الهجريين، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة عين شمس.
- نوال الفائز: الأوضاع الاجتماعية للعلماء في مكة خلال العصر المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القصيم، ١٤٣٦هـ/٢٠١٤م.

هذا؛ وقد انتظمت هذه الدراسة وفق الهيكل التنظيمي التالي:

التمهيد:

أولاً: تعريف الوظيفة والمِهنة والحِرفة.

ثانيًا: فئات العلماء في الحجاز خلال العصر المملوكي.

الفصل الأول: طبيعة الوظائف والمِهن والحِرف في الحجاز خلال العصر المملوكي.

المبحث الأول: وظائف أصلية ووافدة ومختلطة.

المبحث الثاني: المِهن والحِرف الأصلية والمختلطة.

الفصل الثاني: وظائف العلماء الدينية والعلمية والإدارية.

المبحث الأول: الوظائف الدينية.

المبحث الثاني: الوظائف العلمية.

المبحث الثالث: الوظائف الإدارية.

الفصل الثالث: مِهن وحِرف العلماء الصناعية والتجارية والاجتماعية والعلمية والطبية.

المبحث الأول: المِهن والحِرف الصناعية.

المبحث الثاني: حِرفة التجارة.

المبحث الثالث: المِهن والحِرف الاجتماعية.

المبحث الرابع: المِهن والحِرف العلمية.

المبحث الخامس: حِرفة الطب.

الفصل الرابع: أثر وظائف العلماء ومِهنهم وحِرفهم على الحياة العامة.

المبحث الأول: الآثار الدينية.

المبحث الثاني: الآثار الاقتصادية.

المبحث الثالث: الآثار العلمية.

المبحث الرابع: الآثار الاجتماعية.

الخاتمة: وتضمنت أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

قائمة المصادر والمراجع التي تم الرجوع إليها لجمع المادة العلمية لهذه الدراسة.

الملاحق وتضمنت مراسيم التعيين لبعض الوظائف، وقوائم بأسماء سلاطين المماليك، وأمراء مكة والمدينة الذين تولوا خلال العصر المملوكي وغيرها من الملاحق.